التراث العربي في المغرب..[1]
وقضية التواصل بين المشرق والمغرب[2]

ـ ١ ـ

من مكرور القول ومُعاد الكلام أن الأمة العربية قد احتشدت لتسجيل تراثها وجمعه في جهاد دائب لم تشهده أمة من الأمم، ولم تعرفه ثقافة من الثقافات، ولم يقف هذا الجهاد عند مصر من الأمصار، أو يكتفِ بقطر من الأقطار، بل امتد إلى كل بلد طالته يد الإسلام.

وقد اقتضت طبائع الزمان والمكان أن تشهد بلاد المشرق الخطوات الأولى لذلك التسجيل والجمع، ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري.

ولم يكد المغاربة والأندلسيون يتسامعون بأنباء هذا النشاط الذي كانت تغلي به حلقات الدرس ومجالس العلماء في البصرة والكوفة، وصرير أقلام النساخ في مكة والمدينة ومصر والشام حتى ولوا وجوههم شطر المشرق العربي بنفس مشوقة وقلب لهيف.

والمتتبع لحركة التأليف العربي في خطواته الأولى يروعه هذا الحشد الهائل

---

(١) زار كاتب المقال المغرب مرَّتين عضواً في بعثة معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وقد نشر مقاله هذا في حلقتين بمجلة «الثقافة» القاهرية، العددان ٢٧ و ٢٨، ديسمبر ـ يناير ١٩٧٥م.

(٢) مجلة «دعوة الحق»، العدد ٩، السنة ١٧، نوفمبر ١٩٧٦م، المغرب.

من العلماء وطلاب المعرفة. فأي بركان هذا الذي فجَّره كتاب الله المنزل علي النبيّ الأميّ، ففتح به آذاناً صُمّاً وقلوباً غلفاً؟ وأي ضياء وهاج ذلك الذي جاء به الدين الجديد، فأزاح ظلمات القرون والأحقاب؟

انسالت أفواج المغاربة على المشرق، يشافهون العلماء ويروون العلم ويستنسخون الكتب، وقد استفاضت كتب التراجم والرجال بأخبار هذه الرحلات، وقد بدأت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق منذ أواخر القرن الثاني الهجري، مواكبة لحركة الجمع والتدوين، مصاحبة لنشأتها.

ذكر أبو بكر الزبيدي الأندلسي، في ترجمة الغازي بن قيس، المتوفَّى سنة ١٩٩هـ، قال: «كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيام دخول الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، وشهد تأليف مالك للموطأ، وهو أول من أدخله الأندلس، وأدرك نافع بن أبي نعيم ــ أحد القراء السبعة ــ وقرأ عليه، وهو أول من أدخل قراءته»[١].

وفي ترجمة جودي النحوي المتوفى سنة ١٩٨هـ، قال: «هو جودي بن عثمان، من أهل مورور ــ قريباً من قرطبة ــ ورحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله تأليف في النحو»[٢].

وهذا قاسم بن أصبغ محدث الأندلس الكبير، يرحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى، فيسمع بمكة ومصر من علمائهما، ويدخل العراق فيسمع من المبرد وثعلب، ويروي عن ابن قتيبة كثيراً من كتبه»[٣].

وقد رأيت بخزانة القرويين بفاس نسخة عتيقة جداً من كتاب ابن قتيبة المسمَّى:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٥٤، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٥٦.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي، صفحة ٣٦٥، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة.

«تأويل مشكل القرآن» برواية قاسم بن أصبغ هذا، عن ابن قتيبة، بمنزله ببغداد، في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين.

وتصور لنا كتب التراجم إقبال أهل المغرب على علمائهم العائدين من المشرق، لسماع ما تلقوه عن علماء مكة والعراق ومصر والشام[1]. ولقد بلغ من حرصهم وشدة تتبعهم أنهم كانوا يسألون كل قادم من المشرق، ولو كان من التجار. روى الزبيدي عمن أخبره عن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، قال: «كان أبي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن نجم في الشعر بعد ابن هرمة، حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور حسن بن هانىء»[2]، يعني أبا نواس.

وقد كان لاستيلاء بني أمية على بلاد المغرب بعد ذهاب دولتهم في المشرق، أثر كبير في إذكاء روح العربية بتلك البلاد، ويؤثر عن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أول خلفاء بني أمية بالأندلس، الكثير من البر بالعلماء والإجلال لهم، وكذلك سار بنوه من بعده، دعماً لقواعد الملك، واستكمالاً لمظاهر الخلافة. وقد تناهت أنباء هذا البر وذلك الإجلال إلى المشرق، فسعى أدباؤه إلى هناك، حيث عطايا الخلفاء موصولة بهبات الوزراء. ذكر ياقوت في ترجمة أبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني»، قال: «وله بعد تصانيف جياد فيما بلغني كان يصنفها ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية، وكانوا يحسنون جائزته، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل. والله أعلم»[3]. وقد سمى هذه التصانيف الوزير جمال الدين القفطي[4].

وهذا أحد أعلام الأدب العربي في المشرق: أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي، صاحب كتاب «الأمالي» يفد على القيروان سنة ٣٢٩هـ، وقد جلب في قافلته أحمالاً كثيرة من نفائس المؤلفات المشرقية، ما بين لغوية وأدبية وتاريخية،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٧٥ (ترجمة عفير بن مسعود).

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٦٢، وأيضاً: تاريخ علماء الأندلس، صفحة ٢٩٦.

(٣) معجم الأدباء ١٣٠/ ١٠٠، طبعة دار المأمون.

(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/ ٢٥٢، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

ودواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولَّدين، فباع منها في مدة عام كامل ما شاء أن يبيع لأهل إفريقية، ثم تحول بعد ذلك في سنة ٣٣٠هـ إلى الأندلس بما بقي له منها. وقد حفظ لنا أبو بكر بن خير الإشبيلي قائمة بأسماء هذه الدواوين في فهرست ما رواه عن شيوخه[١].

تواصل أدباء المشرق والمغرب، وإن ظلت رحلات المغاربة إلى المشرق أكثر وأدوم لأسباب كثيرة، من أبرزها أن المشرق كان ولا يزال طريق المغاربة للحج، الركن الخامس من أركان الدين الحنيف.

وحين انتدب المغاربة للتصنيف والكتابة ظهر في إنتاجهم مشابه من مناهج المشارقة وطرائقهم في الكتابة، مما حدا ببعض النقاد والمؤرخين أن يربطوا بين الإنتاج المشرقي والمغربي، على نحو يريد أن يثبت دائماً أن المغاربة قد تأثروا بالمشارقة في كل ما يعالجون، فهم يقولون: إنَّ ابن زيدون بحتري المغرب[٢]، وإنَّ أبا بكر الزبيدي الإشبيلي، صاحب كتاب «مختصر العين» في المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق[٣]، وإنَّ أبا الحسن بن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» قد تأثر بأبي منصور الثعالبي ونسج على منواله في كتابه: «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»[٤]. إلى غير ذلك من الأمثلة.

---

(١) فهرست ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي، صفحة ٣٩٥ ــ ٣٩٧، نشر المكتب التجاري ــ بيروت، وانظر ما كتبه العلاَّمة حسن حسني عبد الوهاب، عن العناية بالكتب وجمعها في إفريقيا التونسية، من القرن الثالث إلى الخامس للهجرة ــ مجلة المخطوطات العربية بمصر، المجلد الأول، صفحة ٧٢.

(٢) ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه، للأستاذ علي عبد العظيم، صفحة ٥٠٨، وانظر أيضاً: الذخيرة لابن بسام ــ الجزء الأول من القسم الأول، صفحة ٣٢٦.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب مختصر العين، صفحة (هـ)، للأستاذين علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي، طبعة الرباط.

(٤) مقدمة تحقيق اليتيمة، صفحة ١٣، للأستاذ الشيخ محمد محيي الدِّين عبد الحميد، ومقدمة تحقيق الذخيرة، صفحة (أ، ب)، للأستاذ الدكتور طه حسين.

ولئن قبلت هذه المقالة في القرون الأولى للتصنيف، فإنها بحاجة إلى مراجعة فيما تلا ذلك من قرون. ولقد كان ظهور القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المولود بمدينة سبتة ــ رد الله غربتها ــ سنة ٤٧٦هـ، والمتوفى بمدينة مراكش سنة ٥٤٤هـ، إيذاناً باستقلال الشخصية المغربية وامتلاكها لناصية البيان وإسهامها في جلاء وجه الثقافة الإسلامية، وعياض ركن من العلم باذخ، وله طرائق في العلم مأنوسة، كتب الكثير، وتمثل تآليفه إضافات هامة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد رزقت مصنفاته من الحظوة وحسن القَبول والتلقِّي ما لم يرزقه مؤلف مغربي آخر[1]. ومما يشيع على ألسنة المغاربة قولهم: «لولا عياض لما ذكر المغرب». ويقول شاعرهم:

كلهم حاولوا الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

والمعنى الثاني المراد من التورية في قوله: «بالشفاء» هو كتاب عياض الجليل: «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، أشهر وأسير كتب الشمائل النبوية.

تتابعت جهود المغاربة في التصنيف عالية شامخة وبدءاً من القرن السادس لم يعد للمشارقة فضل سبق عليهم، بل نراهم قد زاحموا المشارقة على فنين عظيمين من فنون التراث: علم القراءات، وعلم النحو.

أما علم القراءات فعنايتهم به قديمة، وتصانيفهم فيه مبسوطة، ويرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني أن: هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة[2].

وبحسبنا أن نذكر من فرسان هذا الميدان: أبا عمرو الداني ومكي بن أبي طالب وأبا العباس المهدوي وإسماعيل بن خلف، وغيرهم كثير تراهم في فن

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب «التعريف بالقاضي عياض» للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، ومقدمة تحقيق كتاب: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، والكتابان من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

(٢) كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، صفحة ١١٨.

القراءات من فهارس المكتبات. وبحسبنا أيضاً أن نعرف أن أشهر نظم في هذا الفن، وهو المسمَّى: حرز الأماني ووجه التهاني، والمعروف بالشاطبية، صاحبه مغربي أندلسي، وهو: القاسم ابن فِيرُّه بن خلف الرعيني الأندلسي الشاطبي، وقد صار نظمه هذا العمدة في ذلك الفن، وتعاقب عليه الشراح من المشرق والمغرب، ولا يزال يتصدر برامج الدراسة في معهد القراءات بالأزهر الشريف.

ولم تفتر عناية المغاربة بعلم القراءات على امتداد الأيام وتصرف الأحوال، وقد تعرفت أثناء رحلتي الأولى إلى المغرب، على شاب من ريف المغرب، في منزل الأستاذ العلامة محمد المنوني بمدينة الرباط، وكان هذا الشاب آية في معرفة القراءات العشر بطرقها ورواياتها المختلفة، يحفظها ويستشهد لها من الكتاب العزيز في سهولة ويسر. وقد أخبرني الأستاذ المنوني أن لهذا الشاب نظائر كثيرة في بلاد المغرب، وبخاصة في الريف.

وأما علم النحو فللمغاربة احتفال به زائد، وقد ظهر اهتمامهم له مبكراً. هذا أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل، من قدماء المغاربة القرويين، كان يحفظ كتاب سيبويه، وقد توفي حمدون هذا بعد المائتين[1]. وقد وقف المغاربة على قدم واحدة مع المشارقة في العناية بكتاب سيبويه إمام النحاة: شرحاً أو تعليقاً أو اختصاراً[2].

ذكر جلال الدين السيوطي في آخر كتابه: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» وهو يسرد موارده في تأليف الكتاب، قال: «وأما المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد بذلك، والنحاة به جم غفير»[3].

ويورد جمال الدين القفطي كلاماً جيداً يشهد لذلك، يقول في ترجمة أبي محمد عبد الله بن علي بن إسحاق الصَّيْمري النحوي: «قدم مصر، وحفظ عنه شيء

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٣٥.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للحاج خليفة، صفحة ١٤٢٧، طبعة استانبول.

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الجزء الثاني، صفحة ٤٢٨، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

من اللغة وغيرها، وصنف كتاباً في النحو سمَّاه «التبصرة» وأحسن فيه التعليل على مذهب البصريين، ولأهل المغرب باستعماله عناية تامة، ولا يوجد به نسخة إلا من جهتهم»[1].

ويقوي كلام القفطي هذا أني عرفت ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب، كلها مكتوبة بخط أندلسي مغربي عتيق: النسخة الأولى محفوظة بمكتبة الإمبروزيانا بميلانو، كتبت سنة ٥٨٢هـ، والثانية بالخزانة العامة بالرباط، نسخت سنة ٥٩٧هـ، والثالثة بخزانة القرويين بفاس، وهي من خطوط القرن السادس في أكبر الظن. وبقي من هذا الكتاب نسخة رابعة، ذكر المستشرق كارل بروكلمان أنها محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، ولا أعلم من حالها شيئاً فأذكره.

وقد ذهبت مؤلفات المغاربة النحوية بالذيوع والشهرة في معاهد الدرس والتعليم مشرقاً ومغرباً، فهذه ألفية ابن مالك الجياني الأندلس تحظى بالشهرة، ويتلقاها الناس بالقَبول، ويرجعون إليها في ضبط قواعد النحو والصرف، ويأخذون بها ناشئتهم وصبيانهم[2].

وهذا متن الآجرومية، لم يطاوله متن آخر: ضبطاً لقواعد النحو وحصراً لمسائله ويسراً في صياغته، ولا يزال موضع التلقِّي والقَبول إلى يوم الناس هذا. وصاحب هذا المتن هو: أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، عرف بابن آجروم، ومعناه بلغة البربر: الفقير الصوفي. وهو من أهل فاس.

وفيما عدا هذين الفنين شارك المغاربة في سائر فنون التراث، درساً وتصنيفاً، ثم كان لهم فضل إظهار آثار المشارقة: شرحاً لها وكشفاً لغوامضها.

---

(١) إنباه الرواة، الجزء الثاني، صفحة ١٢٣، والصَّيْمَري: بفتح الصاد وسكون الياء وفتح الميم.

(٢) على الرغم من غلبة ألفية ابن مالك على معاهد الدرس مشرقاً ومغرباً، فقد رأيت الصبيان في مسجد الجامع الكبير بمدينة صنعاء ــ أثناء رحلتي في العام الماضي إلى اليمن ــ يتدارسون «ملحة الإعراب» للحريري صاحب المقامات. وهذه «الملحة» أشهر نظم نحوي قبل ألفيتي ابن معطي وابن مالك.

فهذا أبو عبيد البكري الأندلسي يعمد إلى نصين جليلين من تأليف المشارقة، بالشرح والبيان: الأول كتاب «الأمثال»، لأبـي عبيد القاسم بن سلام البغدادي ويسمي البكري شرحه لهذا الكتاب: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. وهذا الشرح قد «احتوى على أكمل تعليقات وتفاسير قديمة ومهمة على ذلك الكتاب، كما احتوى مادة رائعة لا توجد في غيره من كتب الأمثال الأخرى»[1].

والثاني: كتاب «الأمالي»، لأبـي علي القالي البغدادي. ووسم أبو عبيد شرحه لذلك الكتاب: اللآلي في شرح أمالي القالي. ونشره العلامة عبد العزيز الميمني باسم: سمط اللآلي.

ثم يتصدى ابن السِّيد (بكسر السين) البطليوسي، بالشرح والبيان لأحد أصول الأدب الأربعة، وهو كتاب ابن قتيبة البغدادي المسمَّى: «أدب الكاتب»، أو: «أدب الكتاب». واسم هذا الشرح: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. وهو من أجل شروح الكتاب، كما يقول صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

وحين فرغ أبو محمد الحريري البصري من إنشاء «مقاماته» الأدبية المعروفة، تعاقب عليها الشراح بالتفسير والبيان، حتى بلغت شروحها أكثر من خمسة وثلاثين شرحاً، ما بين مشرقي ومغربـي. ومن أعظم هذه الشروح وأجمعها للغرائب والفرائد شرح أبـي العباس الشَّريشي الأندلسي.

ولم يعرف للسيرة النبوية التي صنفها محمد بن إسحاق شرح أوعب وأكثر جمعاً للفوائد والشوارد، من شرح أبـي القاسم السهيلي الأندلسي المسمَّى: الروض الأُنُف، والمشرع الرّوىٰ في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى.

والمشتغلون بتاريخ المذاهب الفقهية الإسلامية يعرفون أن أهم شروح مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، إنما جاءت من قبل العلماء المغاربة الذين أكثروا

---

(١) راجع كتاب الأمثال العربية القديمة، تأليف المستشرق الألماني رودلف زلهايم، ترجمة الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب، صفحتي ١٥١، ٢١٩، طبعة بيروت.

التصنيف فيه، ما بين مختصر ومبسوط. وذلك لغلبة مذهب مالك على أهل هذه الديار.

ولن يتسع المقام لأكثر من هذه المثل، وهي كثيرة مفرطة في الكثرة. وحسبنا أن نختم بذكر أثر خطير من آثار الفكر الإسلامي، نشط له المغاربة، وتناولوه بالشرح والتعليق، على حين قصر غيرهم، استعظاماً لشأنه، وتهيباً من مسالكه، ذلك هو كتاب «البرهان» في أصول الفقه، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (بضم الجيم وفتح الواو: نسبة إلى جوين، بلدة من نواحي نيسابور) من أئمة علماء الشافعية في القرن الخامس.

يقول تاج الدين السبكي عن هذا «البرهان»: «اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه، على أسلوب غريب، لم يقتد فيه بأحد، وأنا أسميه لغز الأمة لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها. وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية، وأنا أعجب لهم، فليس منهم من انتدب لشرحه ولا للكلام عليه، إلا مواضع يسيرة تكلم عليها أبو المظفر بن السمعاني في كتاب «القواطع» وردها على الإمام، وإنما انتدب له المالكية، فشرحه الإمام أبو عبد الله المازري شرحاً لم يتمه، وعمل عليه أيضاً مشكلات، ثم شرحه أيضاً أبو الحسن الأنباري من المالكية، ثم جاء شخص مغربي، يقال له: الشريف أبو يحيى، جمع بين الشرحين».

ويقول السبكي في موضع آخر عن المازري: «هذا الرجل كان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهناً، بحيث اجترأ على شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه، ولا يدندن حول مغزاه، إلَّا غواص على المعاني، ثاقب الذهن، مبرز في العلم»[1].

(١) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق أخي الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وكاتب هذا المقال، الجزء الخامس، صفحة ١٩٢، والسادس ٢٤٣.

ـ ٢ ـ

ويداول الله الأيام بين الناس، فتتهاوى عروش، وتسقط دول، وتتطاول أمم تريد أن تنقض كيداً ومكراً، وتتعرض الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً لخطوب وفتن كقطع الليل المظلم تسعى لتغتالها اغتيالاً.

وفي غمار تلك الأحداث التي صكت المسامع وخلعت القلوب لم تذهل هذه الأمة عن تراثها الذي شرفت به، ولم ترض أن تسلم حتى يسلم معها، كالأم تحضن طفلها وسط الحريق المدمر، لا يهمها أن تنجو حتى تنجو به.

ولقد كان من صنع الله ولطفه أن هذه الغزوة التترية الكاسحة على المشرق العربي منتصف القرن السابع، لم تمد شواظها إلى بلاد المغرب، فظلت خزائنها عامرة بالكتب، ومجالسها مأنوسة بالعلم والعلماء.

وتتمادى الأيام ولا يفتر حماس المغاربة لجمع المخطوطات وتعهدها بالصيانة والرعاية، ثم تتطور وظيفة الزوايا المغربية، من مكان معد للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين، إلى دور تجمع العلماء والكتب، وتدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي.

وفي القرن الثامن تكاثرت الزوايا وانتشرت فيما بين المغرب ومصر، إيناساً وعوناً لحجاج بيت الله الحرام ليأووا إليها في مراحل سفرهم الطويل، وقد نمت حول هذه الزوايا مدارس استقر فيها طلبة العلم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يشيدوا كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصاً جامع القرويين بفاس[1].

ومن أشهر الزوايا في المغرب: الزاوية الدلائية والناصرية والحمزاوية، وتضم هذه الزاوية الأخيرة مجموعة من نوادر المخطوطات، كتب عنها وعرَّف بها الأستاذ العلامة محمد المنوني، في العدد الثامن من مجلة تطوان. ومن أنفس مخطوطات

---

(١) الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، للأستاذ محمد حجي، صفحة ٢٥، طبعة الرباط.

هذه الخزانة الجزء الرابع من كتاب «غريب الحديث» لابن قتيبة، بخط أندلسي؟ وقع الفراغ من نسخه سنة ٥١٧هـ، وهذا الكتاب نادر جداً في مكتبات العالم. وتنبيهات وتعاليق على كتاب «الكامل» للمبرد، من تأليف أبـي عبيد البكري، والوقَّشي، والبطليوسي، وهذه التنبيهات والتعاليق لا توجد في مكان آخر من مكتبات العالم، فيما انتهى إليه علمي.

وفي العصر الحديث لم يستطع الاحتلال الفرنسي أن يطمس الوجوه العربية في المغرب فيردها على أدبارها بربرية أو أعجمية. فهذا مسجد القرويين يموج بالعلم والمعرفة، وينهض في المغرب بما ينهض به الأزهر في المشرق. وقد أدرك المغاربة المعاصرون جلال هذا الموروث الضخم الذي آلَ إليهم، فتلقوه بكلتا اليدين، وشدوا يد الضنانة عليه، ولقد بلغ من احتفالهم به وحرصهم عليه أن أقاموا حوله الجدر، وبنوا عليه الحيطان، حذراً عليه في بعض الأماكن التي خيف عليه فيها من بطش الباطشين واعتداء المعتدين.

ويبرز من بين رجالات هذا العصر عالم فحل، قدم للتراث العربـي يداً باقية، حين سعى جاهداً وعمل مخلصاً في جمعه وحفظه، ذلك هو محمد عبد الحي ابن عبد الكبير الحسني الإدريسي الكتاني الفاسي، عرف باسم: عبد الحي الكتاني.

كان هذا الرجل شغوفاً بالكتب مولعاً بجمعها، مع علم غزير واطلاع واسع، وقد وقف حياته على الكتب، ونذر نفسه للعلم، فطوف الكثير، ولقي العلماء، وكاتب واستجاز من لم يلقهم.

يقول رحمه الله عن نفسه، في مقدمة كتابه «فهرس الفهارس»: «فرحلت لأقاصي البلدان وشاسع الأطراف والسكان، من حجاز ومصر وشام، وتونس والجزائر وبلاد المغرب الأقصى حواضره وبواديه، وكاتبت أهل الجهات البعيدة كالعراق واليمن والهند واسطنبول وصحراء إفريقية شنقيط (موريتانيا الآن) وغيرها، رغبة في الاستكثار، فحصل لي من ذلك ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب أحد من أهل جيلنا وأقراننا»[1]. ولن تصدق هذا الكلام حتى ترى ذلك القدر الهائل من المخطوطات التي عمرت بها مكتبة الرجل، والتي ضمت إلى الخزانة العامة بالرباط[2].

وقد قام هذا الرجل في المغرب بما قام به العلامة أحمد تيمور في مصر، فقد جمع هذا أيضاً غرائب ونوادر من المخطوطات حفلت بها مكتبته العامرة التي ضمت إلى دار الكتب المصرية وعرفت بمكتبة تيمور.

المكتبات العامة والخاصة في المغرب:

زرت المغرب مرتين، عضواً في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من منظمات جامعة الدول العربية، وكانت المرة الأولى في صيف عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، والثانية في صيف هذا العام. وقضيت في الزيارتين ستة أشهر رأيت فيها من عناية المغاربة بالمخطوطات وحرصهم عليها وصيانتهم لها، ما يبهج النفس، ويدل على أن الخير باق، وأن الله جلت قدرته لن يضيع تراث هذه الأمة مهما تناوشها الأعداء وأحاط بها الماكرون.

والمخطوطات في المغرب تحتفظ بها المكتبات العامة التي تشرف عليها الدولة، والخزائن الخاصة لدى العلماء. وتوجد المكتبات العامة في الرباط وفاس ومكناس ومراكش وتطوان. وقد أتيح لي أن أرى مكتبات الرباط وفاس وتطوان.

ففي الرباط مكتبتان عامرتان: الخزانة الملكية الملحقة بالقصر الملكي. والخزانة العامة التابعة لوزارة الثقافة.

---

(١) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، الجزء الأول، صفحة ٣، وهذا الكتاب النفيس جعله مؤلفه قاموساً عاماً لتراجم المؤلفين في السنَّة النبوية الشريفة من القرن الثامن حتى أواسط القرن الرابع عشر، وقد أراده ذيلاً على طبقات الحفَّاظ، لابن ناصر والسيوطي.

(٢) ينظر عن نفائس هذه المكتبة: مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، صفحة ١٧٤.

وتزخر الخزانة الملكية بنوادر المخطوطات، ومن أنفس ما تضمه هذه الخزانة نص نادر لأبـي العلاء المعري، لا يعرف في مكتبة أخرى من مكتبات العالم إلى يومنا هذا، ذلك هو كتاب «الصاهل والشاحج» يتكلم فيه أبو العلاء على لسان فرس وبغل. وقد كان لظهور هذا الكتاب دوي هائل في الأوساط الأدبية، وقد كتبت عنه الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) أكثر من مرة بجريدة الأهرام. ونسخة هذا الكتاب مخطوطة سنة ٦٣٨هـ، بقلم أندلسي، وفي الخزانة نسخة أخرى من خطوط القرن العاشر تقديراً، وهي منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٩٣هـ.

وإلى جانب هذا الكتاب النادر، توجد مخطوطات أخرى نفيسة في الخزانة الملكية، منها:

إصلاح المنطق ــ لابن السكيت، بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٩١هـ.

الأصول في الهندسة ــ لإقليدس، بقلم أندلسي نفيس سنة ٦٨٣هـ.

البارع في أحكام النجوم ــ لابن أبـي الرجال، الجزء الأول بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٠٦هـ، والجزء الثاني من نسخة أخرى بقلم أندلسي نفيس سنة ٣٦١هـ.

بغية الآمل في ترتيب «الكامل» للمبرد، لمؤلف مجهول. والكتاب مرتب على الفنون، ومقسم على أربعين باباً. والنسخة بقلم مغربـي سنة ١٢٨٣هـ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٤٦هـ.

تاريخ علماء الأندلس ــ للخشني، بقلم أندلسي عتيق سنة ٤٨٣هـ.

تاريخ مكة ــ للأزرقي، بقلم نسخي قديم من خطوط القرن السادس تقديراً.

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ ــ للخزاعي. بقلم أندلسي جيد سنة ٨٧٦هـ. وهذا الكتاب هو الأصل الذي بنى عليه العلامة عبد الحي الكتاني السابق ذكره، كتابه العظيم المسمَّى: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلية. وهو مطبوع في الرباط سنة ١٣٤٦هـ.

دلائل الإعجاز ــ لعبد القاهر الجرجاني، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السابع تقديراً، وبأولها توقيع لابن هشام النحوي، ولابن الصائغ.

ديوان أبـي تمام ــ برواية الصولي، بقلم نسخي نفيس سنة ٦٦٤هـ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٣٨١هـ.

ديوان جرير ــ برواية السكري. نسخة نفيسة كتبها الخطاط المبدع ياقوت المستعصمي سنة ٦٨٩هـ.

ديوان سبط ابن التعاويذي، بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٢٤هـ.

ديوان ابن سهل الإسرائيلي ــ وهو إبراهيم بن سهل الإشبيلي، كان يهوديّاً وأسلم ــ نسخة بقلم أندلسي من خطوط القرن التاسع. والديوان مرتب على حروف الهجاء، وعني بترتيبه وتهذيبه ابن الدهان.

ديوان ابن مكانس ــ وفيه نثره أيضاً ــ بقلم نسخي سنة ٩٨٩هـ.

السيرة النبوية ــ لابن إسحاق. رواية ابن هشام. جزء منها بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٣٣هـ.

شرح الجمل في النحو ــ للزجاجي. تأليف ابن الصائغ الكناني، بقلم مغربـي سنة ٨٩١هـ.

شرح دواوين الشعراء الستة الجاهليين ــ الجزء الأول بقلم أندلسي جميل سنة ٥٩٤هـ، وبهامشه حواش وتعليقات.

طبقات النحويين واللغويين ــ لأبـي بكر الزبيدي الأندلسي. نسخة بقلم أندلسي قديم من خطوط القرن الخامس تقديراً، وهذه هي النسخة الثانية من الكتاب، فلم يكن يعرف منه إلا نسخة وحيدة بمكتبة نور عثمانية بمدينة استانبول بتركيا. وعنها أصدر الأستاذ الجليل محمد أبو الفضل إبراهيم نشرته الأولى للكتاب، ثم أعاد تحقيقه ونشره على هذه النسخة الثانية وصدر عن دار المعارف بمصر منذ سنتين.

العباب في اللغة ــ للصاغاني. خمسة أجزاء تمثل نحو ثلثي الكتاب، منها

أربعة أجزاء بخط المؤلف نفسه، سنة ٦٥٠، وخطه نسخي جيد. وهذا الكتاب من كتب اللغة المعتبرة، ويعد من المراجع الأساسية للمعجم المعروف «تاج العروس في شرح القاموس».

ووجود هذه الأجزاء الخمسة من «العباب» في الخزانة الملكية بالرباط يعد كسباً كبيراً، فإن هذا الكتاب لا تكاد توجد منه نسخة كاملة في أي من مكتبات العالم إلى الآن.

فضائل الشام ــ لأبـي سعيد السمعاني. نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٦٤٩هـ، وعليها قراءة للإمام الصاغاني المذكور، في سنة كتابة النسخة. وحسب معرفتي لا أعلم لهذا الكتاب إلا نسخة واحدة بدار الكتب المصرية.

كليلة ودمنة ــ ترجمة ابن المقفع ــ نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن الثامن، وبها أشكال ملونة تحكي أحداث القصة.

مختصر شرح مسائل حنين بن إسحاق في الطب، لمؤلف مجهول. نسخة بقلم نسخي حسن من خطوط القرن الثامن.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ــ للفيومي نسخة بخط المؤلف، كتبها سنة ٧٣٧هـ. والمصباح المنير هو ذلك المعجم اللغوي المحرر الذي كان مقرراً على تلاميذ المدارس الثانوية في مصر إلى عهد ليس ببعيد.

المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ــ لابن حيان. جزء منه بقلم أندلسي جيد من خطوط القرن السادس تقديراً. وهذا «المقتبس» نادر وعزيز جداً في مكتبات العالم، ويشتغل به الآن الأستاذ الدكتور محمود علي مكي.

المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي ــ لمؤلف مجهول. نسخة بقلم مغربـي دقيق سنة ٧٢٠هـ، ويوجد المسند نفسه بخزانة القرويين بفاس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ــ للمقَّري المتوفى سنة ١٠٤١هـ، نسخة بخط المؤلف.

هذه مثل قليلة مما تضمه الخزانة الملكية من نفائس المخطوطات.

أما الخزانة العامة بالرباط فتمثل المخطوطات المحفوظة بها: الرصد العام للخزانة، ثم مخطوطات الخزائن الخاصة التي ضمت إلى الخزانة العامة، حفظاً لها وحرصاً عليها، ويأتي في مقدمة هذه الخزائن الخاصة: مكتبة عبد الحي الكتاني، وبعدها مجموعة الجلاوي والحجوي، ثم حصيلة الزاوية الحمزاوية والزاوية الناصرية.

وإذا كانت الخزانة الملكية تحتفظ بأثر نادر من آثار المشارقة، وهو كتاب «الصاهل والشاحج» الذي ذكرت لك خبره من قبل، فهذه الخزانة العامة تحتفظ أيضاً بكتاب نادر للجاحظ، ذلك هو كتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان» الذي سجل فيه الجاحظ أدب أصحاب العاهات، مستطرداً على جاري عادته إلى ذكر النوادر والغرائب.

لقد ظل هذا الكتاب المعجب يتردد في بطون الكتب القديمة دون أن تعرف له نسخة في مكتبات العالم، حتى اكتشفه الشيخ البحاثة السيد المختار السوسي، صاحب كتاب «المعسول» رحمه الله. وقف المختار السوسي على هذا الكتاب منذ نحو أربعين سنة، قابعاً في الزاوية العياشية ببلدة بزو، بين تادلة والسراغنة جنوب شرقي الدار البيضاء. وتتوالى الأيام ولا يفرط المغاربة في ذلك الأثر النادر، حتى كانت زيارة الدكتور صلاح الدين المنجد إلى بلاد المغرب، منذ نحو عشرين سنة، وهو إذ ذاك مدير معهد المخطوطات، ويصحبه عالم المخطوطات الكبير الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، إلى بزو، ويقدم له نفائس المخطوطات ومن بينها هذا الكتاب الفريد، الذي يقدم المغاربة صورة منه هدية للمشارقة تحفظ بخزانة معهد المخطوطات بمصر، ثم يقوم الأخ الدكتور محمد مرسي الخولي بتحقيق هذا الكتاب ونشره على تلك النسخة الوحيدة، منذ ثلاثة أعوام بمصر، وكتب عنه نقداً عالم تطوان الكبير الأستاذ محمد بن تاويت في مجلة دعوة الحق المغربية، عدد جمادى الأخيرة من هذا العام.

وليس كتاب الجاحظ هذا هو الأثر الوحيد الذي تنفرد الخزانة العامة بالاحتفاظ به دون مكتبات العالم، فمن ذلك أيضاً:

تعليق من أمالي ابن دريد، نسخة بقلم نسخي جيد، سنة ٦٤١هـ.

الوسيط في الأمثال ــ للواحدي المفسر، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السادس تقديراً، ولا يعيب هذه النسخة الوحيدة إلا أن بها سقطاً في وسطها.

وهذا الكتاب لم يرد له ذكر في فهارس المكتبات، ولعل ذلك هو الذي دفع المستشرق الألماني رودلف زلهايم إلى أن يقول: «ولا ندري المقصود بما ذكره البغدادي في الخزانة ٤/ ١١٠، من قوله: قال الواحدي في أمثاله»[١].

منال الطالب في شرح طوال الغرائب (أي الأحاديث الطويلة المأثورة عن رسول الله ﷺ، والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم) ــ لمجد الدين بن الأثير، صاحب كتاب «النهاية». نسخة بقلم نسخي نفيس جداً. وقد اجتمع لهذه النسخة من أسباب التوثيق والقَبول ما لا يكاد يجتمع في نسخة أخرى: فناسخها هو محمد بن نصر الله، وهو ابن أخي المؤلف، والده ضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر». وقد فرغ محمد من نسخ الكتاب سنة ٦٠٦هـ، ثم قرأه وسمعه وصحَّحه على عمه المؤلف، وكتب صورة القراءة والسماع عمه الثاني عز الدين بن الأثير المؤرخ صاحب كتاب «الكامل».

ديوان شعر ــ لعبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الأندلسي، كان حيّاً سنة ٨٣٦هـ، وليس لهذا الشاعر ولا لديوانه ذكر في أي مكان، وتتجلى أهميته البالغة في أنه عاش في الأندلس أواخر أيام دولة الإسلام هناك، وقضى حقبة من حياته أسيراً عند الإسبان، وقال في هذه الأثناء كثيراً من شعره، كما سجل في شعره كثيراً من الأحداث في عصره، ورثى كثيراً من المراكز الإسلامية التي عاصر سقوطها في يد الإسبان[٢].

---

(١) كتاب الأمثال العربية القديمة المتقدم قريباً، صفحة ٢١٥.

(٢) قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامع القرويين بفاس، بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة، صفحة ٥٨، طبعة الرباط.

وإلى جانب هذه المخطوطات الوحيدة التي تحتفظ بها الخزانة العامة في الرباط: رأيت نفائس أخرى. منها: إعراب القرآن الكريم ــ لأبـي إسحاق الزجاج، نسخة في عشرة أجزاء، بقلم نسخي جيد سنة ٣٨٣هـ.

مجموع بقلم نسخي نفيس جداً، كتب سنة ٣٥١هـ ــ فيه من الكتب:

الموجز في النحو ــ لابن السراج.

الموفقي في النحو ــ لابن كيسان.

كتاب النحو ــ للغدة الأصبهاني.

شرح ما يكتب بالياء من الأسماء المقصورة والأفعال ــ لابن درستويه.

المقصور والمدود ــ لأبـي عمر الزاهد.

كتاب الكتاب (أي الكتابة والخط والإملاء، وفيه كلام عن المذكر والمؤنث) لابن درستويه.

المذكر والمؤنث ـ للمفضل بن سلمة.

كتاب الخط، وكتاب القلم، وكتاب العروض ــ الثلاثة لابن السراج.

مختصر في فك دوائر العروض ــ لبعض العروضيين.

كتاب القوافي ــ لأبـي القاسم الطيب بن علي التميمي.

الاشتقاق ــ لابن دريد، نسخة بقلم نسخي جيد، كتبها العالم المعروف أحمد بن عبد القادر بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩هـ. وهذه النسخة هي الثانية المعروفة في مكتبات العالم من هذا الكتاب إلى الآن. والنسخة الأولى محفوظة بمكتبة ليدن بهولندة، وعليها كان اعتماد المستشرق الألماني وستنفلد في نشرته سنة ١٨٥٤م، ثم عول عليها أيضاً أستاذنا الجليل عبد السلام هارون في تحقيقه للكتاب.

التعازي والمراثي ــ للمبرد، نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٧٥٧هـ، وهذه هي النسخة الثانية أيضاً من الكتاب. والنسخة الأولى محفوظة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

أنساب الأشراف ــ للبلاذري، نسخة كاملة في مجلد واحد، تم نسخها سنة ٦٦١هـ، وهي أقدم نسخة معروفة من الكتاب.

مقالة في الأدوية المضمونة المجربة ــ لجالينوس، ترجمة حنين بن إسحاق. نسخة كتبت سنة ٦٨٣هـ.

وتحتفظ الخزانة العامة بعدة مخطوطات بخطوط مؤلفيها، عرفت منها:

غريب الحديث ــ لابن الجوزي، فرغ من تأليفه سنة ٥٧٦هـ، وخرجه من مبيضته سنة ٥٨١هـ.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال ــ للحافظ الذهبي وفي آخر النسخة سماعات على المؤلف، سنة ٧٤٣، ٧٤٥هـ.

مجموع يحتوي على عدة تآليف ــ لتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وعلى بعض هوامشه خط صلاح الدين الصفدي.

قطعة من كتاب طبقات الشافعية الكبرى ــ لتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، ومن الغرائب أن هذه القطعة من نفس النسخة التي يوجد منها جزء بدار الكتب المصرية، برقم ٦٤م (تاريخ مصطفى فاضل)، فانظر كيف تفرقت أجزاء النسخة الواحدة في مكتبات العالم!

وفي فاس العاصمة القديمة للمغرب توجد خزانة جامع القرويين، مفخرة البلاد المغربية على الإطلاق، في رحابه تكون رجال وازدهرت معارف، وقد وقف كثير من الملوك والأمراء والعلماء، على خزانة هذا الجامع، العدد الوفير من المخطوطات في شتى العلوم والفنون، وتزخر هذه الخزانة بالنوادر والنفائس، ولا سبيل إلى ذكر كل ما رأيته من هذه وتلك، فحسبي أن أجتزىء ببعض المثل، فمن ذلك:

سير الفزاري ــ ويسمى كتاب السير في الأخبار والأحداث ــ لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري المتوفى سنة ١٨٨هـ، والموجود من هذا الكتاب الجزء الثاني، في ١٨ ورقة، وهو مكتوب على رق الغزال، وتم نسخه في

شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٠هـ (مائتين وسبعين)، وهذا تاريخ له خطره وجلاله عند المشتغلين بتاريخ المخطوطات، وعلى هذا الجزء خط خلف بن عبد الملك بن بشكوال، المؤرخ المشهور، صاحب كتاب «الصلة» في تاريخ علماء الأندلس، ثم توجد عدة أجزاء من نسخة أخرى كتبت سنة ٣٧٩هـ، وتقع في ٥٩ ورقة.

أجزاء من نسخ مختلفة من تفسير الإمام أبـي جعفر الطبري، على رق الغزال، وبعض هذه الأجزاء مكتوب سنة ٣٩١هـ.

مختصر أبـي مصعب أحمد بن أبـي بكر الزهري ــ في فقه المالكية ــ نسخة بخط أندلسي عتيق سنة ٣٥٩هـ.

النوادر والزيادات ــ لابن أبـي زيد القيرواني، في فقه المالكية، جزء منها على رق الغزال، بقلم أندلسي قوبل على نسخة المؤلف وهو على قيد الحياة سنة ٣٨٣هـ.

كتاب الزهد والرقائق ــ لابن المبارك، نسخة بقلم أندلسي سنة ٤٦٥هـ.

السيرة النبوية ــ لابن إسحاق، برواية يونس بن بكير، وهي رواية عزيزة جداً، فإن المطبوع المتداول من سيرة ابن إسحاق إنما هو من رواية عبد الملك بن هشام، ولم تعرف رواية ابن بكير هذه إلا من خلال النقول عنها، عند ابن سعد وابن الأثير وابن كثير[1]، والموجود من رواية ابن بكير في الخزانة الأجزاء: الثاني والثالث والرابع والخامس، وأحد هذه الأجزاء مكتوب سنة ٥٠٦هـ.

الألفاظ في اللغة ــ لابن السكيت، رواية ثعلب، نسخة بقلم أندلسي على رق الغزال، قرئت على العالم اللغوي ابن السيد البطليوسي في منزله بمدينة بلنسية سنة ٥١١هـ.

السماء والعالم ــ في اللغة ــ لأبـي عبد الله محمد ابن أبان اللخمي القرطبـي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، الموجود منه الجزء الثالث بخط أندلسي قديم، وبآخره وقفية

---

(١) راجع مقدمة تحقيق مغازي الواقدي، للمستشرق الإنجليزي الدكتور مارسدن جونز، صفحة ٢٦، طبعة دار المعارف بمصر.

سنة ٨٥٥هـ، ولا تعرف من هذا الكتاب نسخة في أي من مكتبات العالم، وهو من مراجع ابن سيده في كتابه «المخصص».

البيان والتبيين ــ للجاحظ، الجزء الثالث من نسخة جليلة، على رق الغزال بقلم أندلسي نفيس جداً ضارب في القدم، والنسخة مقابلة على أصول صحيحة: أصل الوقشي، وابن سراج، وعطاء بن البادش، وبحواشيها تعليقات قيمة من كتاب الموالي، وكتاب الحيوان للجاحظ.

الإبانة في الوقف والابتداء، في القرآن الكريم ــ لأبي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي، نسخة عتيقة بخط ابن الباذش النحوي المعروف، فرغ من نسخها سنة ٥٢٠هـ.

كتاب مشتبه النسبة، ومعه المؤتلف والمختلف في أسماء وألقاب رواة الحديث ــ كلاهما للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، نسخة بخط نسخي جيد سنة ٥٣٦هـ.

كتاب خلق الإنسان، وكتاب الفرق، في اللغة، كلاهما لثابت بن أبي ثابت، نسخة بخط أندلسي سنة ٦٠٠هـ، وفي الخزانة نسخة أخرى من خلق الإنسان، بها بعض النقص، وهي بخط أندلسي قديم، وهذا «خلق الإنسان» كان قد نشره الأستاذ المحقق عبد الستار أحمد فراج بالكويت منذ عشر سنوات، عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.

تاريخ رواة الحديث ــ لابن أبي خيثمة، الموجود منه الجزء الثالث، بقلم أندلسي سنة ٦١٠هـ، وهذا الكتاب عزيز جداً، وقد عرفت ورأيت منه قطعتين صغيرتين: الأولى بالخزانة العامة بالرباط، والثانية بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

مختصر تفسير أبي زكريا يحيى بن سلام التيمي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩هـ، نسخة بخط أندلسي سنة ٦١١هـ.

كتاب الأخلاق المسمى: نيقوماخيا ــ لأرسطو، بخط مغربي سنة ٦١٩هـ، وبآخره مقالة في المدخل إلى علم الأخلاق يظن أنها من تأليف نيقولاوش.

مجموع بخط أندلسي سنة ٦٣٦هـ، فيه كتاب الأضداد للتوزي، وكتاب الفرق بين الحروف الخمسة، وكتاب المثلث في اللغة، كلاهما لابن السيد البطليوسي.

البيان والتحصيل ــ في فقه المالكية ــ لابن رشد الجد، نسخة مزينة بخط أندلسي دقيق على رق غزال، كتب سنة ٧٢٠هـ، وتفيد هذه النسخة المعنيين بدراسة الخطوط وتطورها، فقد كتبت بقلم أندلسي دقيق ومنسّق جداً، وبلغ عدد صفحاتها ٤٦٠ صفحة، في كل صفحة ٧٥ سطراً، وهذا نمط في الكتابة قل أن يوجد في المخطوطات العربية، وأوراق النسخة كلها من بطن الغزال، وهو أرق شيء فيه، ولك أن تقدر كم من الغزلان استخدم في كتابة هذه النسخة.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، الموجود منه الجزآن الثالث والخامس من النسخة ذات الأجزاء السبعة التي وقفها ابن خلدون على خزانة جامعة القرويين، بتاريخ شهر صفر سنة ٧٩٩هـ، وعليها خط يده.

كتاب في السياسة ــ لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي المتوفى سنة ٤٨٩هـ، نسخة مكتوبة سنة ٨٤٣هـ.

منظومة رجزية في علم الطب العام ــ لابن الطفيل الفيلسوف، الرجز مرتب على سبع مقالات تتجاوز عدد أبياته ٧٧٠٠ بيت، ويقول بعض المغاربة الذين قرأوا هذه الأرجوزة أن ابن الطفيل تكلم فيها على مرض السكر.

شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ــ لابن رشد الحفيد ــ نسخة بخط أندلسي قديم.

هذه مختارات مما تفيض به هذه الخزانة العريقة من الذخائر والتحف، وقد رأيت بعض النفائس وقد عبثت بها الأرضة والرطوبة عبثاً شديداً، ولولا غيرة القائمين على الخزانة ــ وعلى رأسهم العلامة محمد العابد الفاسي ــ لأتت الأرضة والرطوبة

على الكثير من نوادرها، وهذا رجاء أبعث به إلى الحكومة المغربية الرشيدة ــ وأياديها على التراث مذكورة مشكورة ــ أن تولي مزيد اهتمام بهذه الخزانة، فتبادر بتصوير كل مقتنياتها تصويراً فنّياً بعد أن ترممه وتجلده، ثم رجاء آخر إلى العلامة العابد الفاسي أن يخرج إلى النور هذا الفهرس العلمي القيم الذي صنعه لمحتويات الخزانة، والذي وظف فيه علمه الغزير وخبرته النادرة، فلقد رأيت كثيراً من التعليقات الجيدة على أغلفة المخطوطات بقلمه، آجره الله وجعله في موازينه.

وفي تطوان رأيت مخطوطات المكتبة العامة، وعددها قليل بالقياس إلى مخطوطات الرباط وفاس، ومن أهم ما تضمه هذه المكتبة ديوان أبـي الطيب المتنبـي ــ بقلم مغربـي جميل، وتمتاز هذه النسخة بأن بها زيادات من شعر المتنبـي ليست توجد في سائر نسخ الديوان المعروفة، فضلاً عما بها من ذكر مناسبات القصائد، وشرح بعض الألفاظ اللغوية، والتنبيه على المعنى المراد، والديوان مرتب على حروف المعجم، وبأوله مقدمة للأديب أبـي جمعة المراكشي الماغوسي، في بيان أهمية شعر المتنبـي، وما له من الحظوة عند ملوك السعديين.

وقد كتب عن مخطوطات تطوان العلامة عبد الله كنون، مقالة مستفيضة تراها في مجلة معهد المخطوطات ــ الجزء الثاني من المجلد الأول.

هذا ما كان من أمر المكتبات العامة التي عرفتها في المغرب. أما المكتبات الخاصة فتنتشر في حواضر المغرب وباديه، وقد أشار إلى بعضها الدكتور صلاح الدين المنجد في الجزء الأول من المجلد الخامس، من مجلة معهد المخطوطات.

وقد عرف المغاربة المعاصرون قيمة ما انتهى إليهم من ذلك الإرث الكريم، فتناولوه بالدرس والبيان، واكتشفوا من خلاله تاريخ الحضارة في بلادهم، ونفر منهم طائفة تفقهوا في فن المخطوطات، فجروا وراءها يجمعونها من الزوايا والصحراء، ويقيمون حولها الدراسات، ثم يقدمونها للناس ميسورة الجنى دانية القطاف.

وقد عرفت ثلاثة رجال من أعلام هذه الطائفة: محمد المنوني ومحمد إبراهيم الكتاني في الرباط، ومحمد العابد الفاسي في فاس، وهذا تقدمت الإشادة بفضله عند

الحديث على القرويين. أما المنوني والكتاني فقد قدما للتراث العربي في المغرب يداً باقية وأثراً مذكوراً، فكم اكتشفا من مخطوطات، وكم صحَّحا من نسبة كتب لغير أصحابها، ولولا خوف الإطالة لذكرت من هذا وذاك الشيء الكثير، ثم كانت مساعدتهما المخلصة وعونهما الكريم لكل من يرد المغرب أو يستفتيهما من خارجه، فلم يحجبا علماً ولم يبخلا بنصح.

ويمثل هؤلاء الأعلام الثلاثة الطبقة الأولى في الواقع الأدبي المغربي المعاصر، وهي الطبقة التي تخرجت في القرويين، واتصلت بالتراث في أصوله الأولى ومنابعه النقية بعيداً عن عبث المختصرين وضلال المتأولين.

وقد عاشت هذه الطبقة تجربة الحماية الفرنسية بكل مرارتها، فلم تخدع عن لغتها وتراثها، وظلت حفية به حريصة عليه مستزيدة منه.

وبجانب هؤلاء الأعلام الثلاثة عرفت من فحول هذه الطبقة: عبد الله كنون في طنجة، وسعيد أعراب، ومحمد داود، ومحمد بن تاويت ــ في تطوان، والرحالي الفاروقي في مراكش، وعبد السلام بن سودة في فاس، وفي الرباط: عبد الله الجراري، وعبد العزيز بن عبد الله، ومحمد الفاسي، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد بن العباس القباح، والحاج محمد باحنيني وزير الثقافة، وهذا الرجل نمط وحده، فهو أديب مترسل، تستمع إليه فيحملك إلى دنيا حافلة بالنغم الحلو واللفظ المعجب والمعنى الشريف. وقد أتيح لي أن أستمع إليه في أمسية شعرية بالرباط، قدم فيها الشاعر السوري الكبير عمر أبو ريشة، فخلتني مع بيان الجاحظ وترسل ابن العميد، ولا أعتقد أن لهذا الأديب نظائر كثيرة في المشرق والمغرب.

وما زالت هذه الطبقة تواصل عطاءها السخي، وعلى وقع خطواتها سارت الطبقة الثانية من أدباء المغرب، وهي طبقة أصابت من مائدة القرويين العامرة، ثم اتصلت بالمناهج الحديثة وحصلت على أرقى الشهادات الجامعية، واتخذت مكانها في قاعات الدرس بالجامعة والمعاهد العلمية، وهذه الطبقة هي أمل المغرب

المعاصر، لما عرفت من وقوفها على القديم واتصالها بالحديث، وقد أدركت منها:

الأساتذة الدكاترة: محمد بن شريفة، وعباس الجراري، وعبد الهادي التازي ــ في الرباط، والأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس، وعبد الوهاب التازي، والشاهد البوشيخي ــ في فاس، والأستاذين حسن الوراكلي وإسماعيل الخطيب ــ في تطوان، وعباس الجراري أكثر هؤلاء اتصالاً بالحديث، مع روافد تراثية خصبة.

ونأتي إلى الطبقة الثالثة: كتاب الرواية والقصة والمسرحية والشعر والحديث، وكتَّاب هذه الفنون الأدبية في المغرب يعالجونها على النحو الذي تعالج به في مصر والشام والعراق وسائر بلاد المشرق سواء بسواء، من حيث البناء والمضامين والانتماءات الفكرية المختلفة.

وتطالعك من كتاب الرواية والقصة أسماء: عبد الكريم غلاب، وإدريس الخوري، وبوشتي حاضي. ومن كتاب المسرحية: عبد الكريم برشيد، ومصطفى الزباخ، ومن الشعراء: محمد الصباغ، وحسن الطريبق، وأحمد المجاطي، وعبد الكريم الطبال، ومحمد السرغيني، ومحمد بن ميمون، ولا شك أن هناك كثيرين غير ما ذكرت ممن عرفت خلال رحلتي الاثنتين إلى المغرب.

وهذه الطبقات الثلاث من علماء وأدباء المغرب تواصل إنتاجها بثراء وغزارة، ويجمعها كلها عتاب شديد على أدباء المشرق لإعراضهم وتجافيهم عما تنتجه القرائح المغربية، وهذا العتاب يأتيك هامساً رفيقاً من طبقة الشيوخ، وتسمعه صاخباً غاضباً من طبقة الشباب، فعلى حين يرى الشيوخ أن هذا الإعراض والتجافي إنما جاءا نتيجة عوامل اصطنعت في الأمة العربية اصطناعاً لتلفتها عما وجدت عليه آباءها، وهي إلى زوال وانقضاء، يرى الشباب أنهما ــ الإعراض والتجافي ــ نغمة من مقام التفوق الثقافي الذي يحس به المشارقة نحو المغاربة، وآية ذلك هذا السيل من الكتب التي تحمل عناوين توحي بالشمولية، مثل «دراسات في الشعر العربي المعاصر» من مصر، و«الشعر العربي الحديث وروح العصر» من العراق،

و«في الشعر العربي المعاصر» من سوريا، ثم تقرأ هذه الكتب فلا ترى فيها ذكراً لشاعر من شعراء المغرب.

وقد كتب الأديب عبد الجبار العلمي، يرد على الأديب السوري بندر عبد الحميد كلمته التي نشرها بجريدة الثورة السورية، عن التجربة الشعرية في المغرب، واتهامها بالانطواء والعزلة، ومما قاله العلمي: «وأحب أن أقول للسيد بندر عبد الحميد: إن المثقفين المغاربة من أشد الناس حرصاً على الاطلاع على النشاط الثقافي في كل الأقطار العربية، وأنهم يلتهمون كل ما يصل إلى المغرب من كتب ومجلات وصحف عربية، وأنهم يتمثلون كثيراً من التيارات الجديدة، سواء في القصة أو المسرح أو الشعر، وأن التجربة الحديثة لدينا تمتح من جميع الاتجاهات، سواء منها العربية أو الأجنبية... وهناك عديد من الأبحاث في كلية الآداب في السنة الأخيرة من الليسانس، كلها تتضمن شخصيات أدبية معاصرة، سواء في مصر أو في سوريا أو في العراق»[1].

وهذا الذي قاله الأديب عبد الجبار العلمي حق كله، وقد وقفت على أماراته وشواهده في كل المدن المغربية التي زرتها، فالمكتبات عامرة بآثار المشارقة، وإحالات الأساتذة الجامعيين وغيرهم من الباحثين على كتابات أدباء المشرق تملأ حواشي كتبهم، وعلى الجانب الآخر انظر ما يكتبه بعض المشارقة من دراسات أندلسية أو مغربية، وسترى خلطاً كثيراً واضطراباً بيِّناً، أدى إليهما قلة معرفة بالمراجع المغربية الأصيلة، وعدم متابعة لما يجري على الساحة المغربية من نشاط أدبي وفير.

وليسمح لي الأستاذ العلمي أن أنتقل بالقضية إلى ميدان أخطر وأجل من قضايا القصة والمسرح والشعر الحديث، إنها قضية الفكر العربي الشتيت، والأمة الغافلة عن ماضيها، الذاهلة عما يراد بها، ولقد كان هناك تواصل ولقاء بين أبناء هذه الأمة

(١) الملحق الثقافي لجريدة «العلم» المغربية، الجمعة ١٢ رمضان ١٣٩٥هـ ـ ١٩ سبتمبر ١٩٧٥م.

يوم كانت وسيلة الاتصال الناقة والسفينة، وحين تقاربت المسافات وطويت الآماد تقطعت أسباب التواصل وانصرف كل في واد، وقد حدثتك من قبل عن قاسم بن أصبغ الأندلسي الذي روى عن ابن قتيبة كتبه بمنزله ببغداد، ويا بعد ما بين الأندلس وبغداد.

ولم يعد هناك من صور التواصل إلا ما يكون من تلك المؤتمرات الأدبية التي تعقد في عاصمة من عواصم البلاد العربية كل عام أو عامين، تستغرق من الأيام سبعة أو عشرة، وتنتهي جلساتها ببعض القرارات والتوصيات التي تذروها الرياح، بل قد تكشف هذه المؤتمرات أحياناً عن تنافر موحش بين أعضاء الوفود، نتيجة اختلاف المشارب والأهواء، وإقحام قضايا تجافي روح الأدب والفكر.

وإذا كانت الأمة العربية تشترك كلها مشرقاً ومغرباً في مسؤولية التواصل هذه، فإني أشهد أن المغاربة لم يقصروا، وما برحوا يمدون أبصارهم إلى المشرق، تكريماً لعلمائه وإفادة منهم، فهذه الدروس الدينية الرمضانية التي تلقى بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب، في قصره بالرباط، والتي تسمَّى: الدروس الحسنية، يدعى إليها كبار مفكري الإسلام من البلاد العربية، وقد دعي من علماء مصر هذا العام أستاذنا الجليل محمود محمد شاكر ــ ويسميه بعضهم هناك: شيخ العربية ــ والباحث الدكتور مصطفى محمود.

وقد حدَّثني أحد منظمي مهرجان ابن زيدون في الرباط أنَّ وزارة الثقافة المغربية قد دعت إلى هذا المهرجان كل من له أدنى صلة بابن زيدون في مختلف البلاد العربية، وقد دعي من أدباء مصر عدد وفير ليسوا كلهم على صلة بابن زيدون، بل إن بعضهم لا وجود له فيما يكتب من أدب في مصر هذه الأيام، وقد كانت له أيام، ولكنها رغبة المغاربة الدائمة في تكريم الأديب المصري، وإجلالهم لماضيه، وحين زالت الحواجز التي كانت تعوق حركة المصريين اندفع المغاربة في دعوة كثير من أساتذة الجامعات المصرية للإفادة من علمهم في قاعات الدرس بالجامعات المغربية.

والحق أن لمصر في الوجدان المغربـي رصيداً ضخماً من الحب والإعزاز، تراه أنَّى سرت وحيثما توجَّهت، وقد رأيت من تعلق المغاربة بكل ما هو مصري ما لا يبلغ كنهه وصف واصف، ولا يسوء القوم إلا أننا نجهل عنهم الكثير، ولقد قال لي عالم مغربـي كبير: إننا نعرف عنكم كل شيء وأنتم لا تعرفون عنا أي شيء.

وبعد: فإذا كان المغرب قد حافظ على التراث العربـي، مخطوطات نادرة ونصوصاً قيمة، فإنه قد حافظ عليه أيضاً، سلوكاً وفضلاً ورعاية لواجب الأخوة مهما تباعدت الديار وتناءت الأمصار.

وهذه دعوة من فوق منبر «الثقافة» إلى أدباء المشرق عامة، وأدباء مصر خاصة أن يلتفتوا لفتة جادة إلى أدب إخوانهم في المغرب، درساً له وبحثاً عن مواطن الإجادة فيه، فما ينبغي أن يظل هذا الركن القصي من الوطن العربـي غير محسوب في خريطة الفكر العربـي.

* * *